منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الهدف للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

"22عاماً من التعبير الحر والمسؤولية الوطنية"

www.almadasupplements.com

العدد (6081) السنة الثالثة والعشرون - الأربعاء (4) شباط 2026

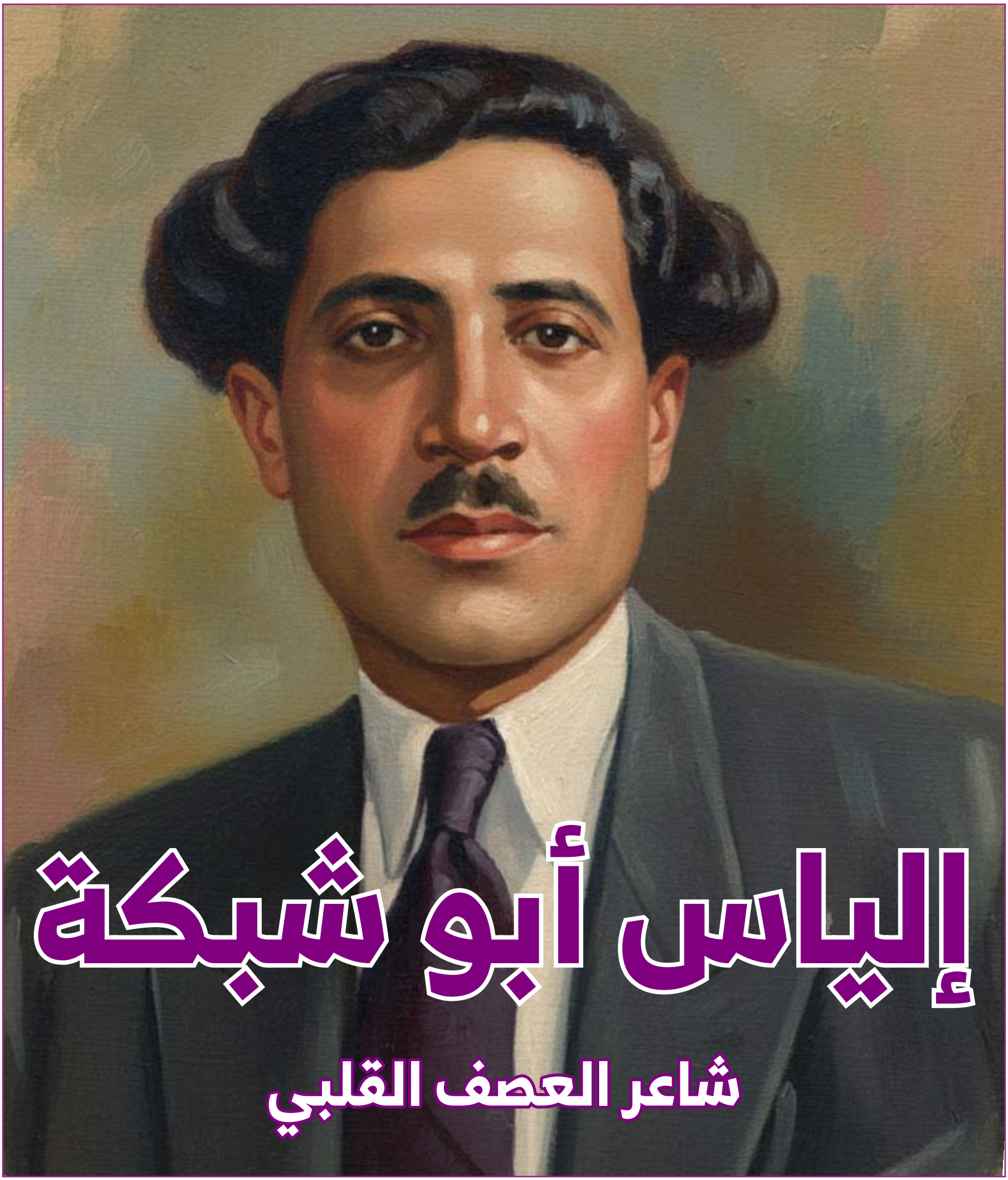

إلياس أبو شبكة

شاعر العصف القلبي

إلياس ابو شبكة 1903 ـ 1947

شـاعر لبناني مـن ضيعة الزوق في كسـروان بلبنان. كان أحد مؤسسـي "عصبة العشـرة". يتميز نتاجه الإبداعـي بغنى الأوجه وتعددها. كان أبو شبكة "سريع الاندفاع وافر الحماسة، شـديد التعصـب لرأيه وقوله، وشـعره خاصة، عنيـف الرد على مناظريه، عصبـي التعبير.. الا أنـه كان وشـيك العدوء قريـب الرضا فيعود كمـا بدا صديقـا مخلصـا وفيّا، سـليم القلب، طيّب السـريرة، على اباء أنوف، وكبرياء تيّاهة «...

حياته:

ولـد الشاعر المرحوم الياس بـن يوسف بن الياس أبو شبكة سنـة ١٩٠٣ في بروفيدانس بالولايات المتحدة أثنـاء سياحـة قام بهـا والده. عـاد إلى ضيعته وهو لم يتجاوز السنة. درس علومه في مدرسة عينطورة سنة ١٩١١، ولما وقعت الحـرب العالميـة الأولى توقف عن الدراسة، وبعـد انتهائها استأنفهـا في مدرسة الإخوة المريمين في جونية، فقضـى فيها سنة دراسية واحدة، ثم عاد إلى مدرسة عينطورة. كان غريب الأطوار يتعلم على ذوقه، ويتمرد على أساتذته.

لقـد خلف هـذا الشاعـر اليائس على قصـر عمره، ما لا يقـل عن ثلاثـين كتاباً مطبوعـاً في مختلـف المواضيع والأحجـام بـين ترجمـة وتأليـف منها: الحـب العابر، عنـتر، القيثـارة، جوسـلين، طاقـات زهـر، العمـال الصالحـون، سقـوط ملاك، مجدولين، الشاعر، المريض الصامت، تاريـخ نابوليـون، الروائـي، الطبيب رغماً عنـه، مريـض الوهـم، المثري النبيـل، البخيـل مانون ليسكـر، بولـس وفرجينـي، الكـوخ الهنـدي، أفاعـي الفردوس، الألحان، المجتمع الأفضل، لبنان في العالم، نداء القلب، تلك أثارها، قصر الحير الغربي، إلى الأبد، غلواء، اوسكار وايلد، بودلير في حياته الغرامية.

ولـه في الصحـف والمجـلات العربية مقـالات متنوعة وقصائد ودراسات وترجمات لو جمعت في كتب لأربى عددها على العشرين ويزيد.

كانـت بـوارق العبقريـة تنبجـس حينـاً بعـد حين من بعـد انطلاقاتـه وجولاتـه الأدبيـة، وكان شعـره وليد حـالات نفسانيـة، ذا نفس متقدة، فعبـّر في قوافيه عن آلام لا حدّ لها ولا طرف آلام من الحب وآلام من أعباء الحيـاة، كان لا ينظـم إلا مهتاجا، في ساعة يأس أو في ليلة خمـر، فيؤثر شعـره في قارئه. وقـد سادته الكآبة، واعتـاد أن ينهض باكـراً فينصـرف إلى الكتابة، وكان يصطـاف في مصيف(حراجل) وصـرف عشر سنوات في التغريـد لإطراب الناس، فكان غزله المتعفف تشبع فيه ألـوان الطبيعة ممتزجة بألوان كآبة النفس وألمها، لم يقتصـر شعر صباه على الغزل وحده، بل كان له من إحساسـه المرهف ما يجعلـه شديد الانفعـال تضطرب أعصابه لشتـى العوامل التي تؤثر في نفسه، فما يزال يبلورهـا الشعـور والخيال حتـى يفجرهـا في شعره نقمـة على أشخاص يجد الأذيـة منهم، أو ثـورة على الظلم والحكام الجائرين في وطنه.

علـى أنه بعد أن نضجت شاعريتـه واستوثق أسلوبه، صـار لا يرضيـه شعـر صبـاه، وبلغـت قمـة شاعريته في(أفاعـي الفردوس) وهي تحفة نـادرة ولون جديد في الأدب العربـي ينفرد به، ويبقى لـه، لا تمتد إليه يد العنـاء، ولا يستطيع أي شاعر أن يأتي بمثله أو يدانيه في الوصف.

أعماله:

تـرك أبـو شبكة الراحل حـوالي ٤٠ كتابـا بين مترجم وموضوع.

أشعاره:

=«القيثارة" (١٩٢٦)،
=«الهريض الصامت" (١٩٢٨)،
=«أفاعي الفردوس" (١٩٣٨)،
=«الألحان" (١٩٤١)،
=«نداء القلب" (١٩٤٤)،
=«إلى الأبد" (١٩٤٥)
="غلواء" (١٩٤٥).

نثره:

=«طاقات زهور" (١٩٢٧)،
=«العمال الصالحون" (١٩٢٧)،
=«الرسوم" (١٩٣١)،
=«روابـط الفكـر والـروح بـين العـرب والفرنجـة" (١٩٤٥)
=لبنان في العالم
= المجتمع الأفضل
= روابط الفكر بين العرب والفرنجة.

ترجماته:

=«جوسلين» و«سقوط ملاك» لالا مارتين
=«بـول وفرجيني" و "الكـوخ الهنـدي" لبرنردين دو سان بيار
=«البخيـل"، و "المثـري النبيـل"، "ومريـض الوهـم" و"الطبيب رغما عنه" لموليير.

قيثارَتي لَم أُلَطِّخها بِأَقذارِ

الـياس ابـو شبكة

قيثارَتي لَم أُلَطِّخها بِأَقذارِ
عَلى طَوافي بِها في بُؤرَةِ العارِ
عَذراءُ تَتَّهِم العُرى بِكارَتَها
في كُلِّ خَمّارَةٍ أَصغَت لِأَوتاري
وَكُلُّ قاذورَةٍ تُرقى بِعورَتِها
إِلى لِسانِ ذَريفِ الخُبثِ سَيّارِ
تَنكَّرَ الخَفرُ المَسوحُ في دَمِها
يُزَخرِفُ عاقِرٍ في مَنطِقِ عارِ
أَوتارُ قيثارِها المَوبوءِ فاجِعَةٌ
كَأَنَّها حَيَّةٌ لاذَت بِقيثارِ
أَفعى أُصيبَت بِحُمّى المَجدِ فَانقَلَبَت
مِن كِهفِها مِزقاً سَكرى عَلى الغارِ
إِبليسُ خُذ هذِهِ العُرى فَإِن بِهِ
ما في جَحيمِكَ مِن رِفدٍ وَمِن نارِ
خُذها إِلَيكَ وَعَقِّمها فَلا حَبَلَت
أُنثى مِنَ الأُنسِ بِالكِبريتِ وَالقارِ
كَم شاعِرٍ خَبَثَت فيهِ غَرائِسُه
فَراحَ يُملي بِأَنيابٍ وَأَظفارِ
مِنَ المَواخيرِ أَو حِينَ الجَمالِ لَهُ
مُعَرِّفُ الشَهوَةِ السُفلى بِأَزهارِ
وَجَنَّنَه بِأَكالِيلٍ مُفَجِّعَةٍ
نَمَت سَموماً عَلى حافاتِ أَوجارِ
تاجٌ مِنَ الدَرَكِ الأَدنى يَطوفُ بِهِ
عَلى الخَفافيشِ في أَشلاءِ أَطمارِ
تَسيرُ في رَكبِهِ الأَقزامُ حاشِيَةً
قامَت لِتَأييدِهِ في مُلكِهِ الهارِي
تَهَتَّكَت سُخرِيّاتُ الخُلودِ بِهِ
فَصاحَ تِلكَ عَلى الأَجيالِ آثارِي
لا يَضمَرُ الحُبُّ إِلّا في مَحاجِرِهِ
فَعَينُه لِلهَوى وَالقَلبُ لِلنارِ
إِبليسُ خُذه وَعَقِّمهُ فَلا نَشَأَت
مِن صُلبِهِ أُسرَةٌ شَوهاءُ في دارِ
كَم عاشِقٍ راغٍ مِن عَذراءَ طاهِرَةٍ
عُلِّقَ مِنَ المَلإِ الأَعلى بِأَنوارِ
باكورَةُ الحُبِّ أَبقى في مَراشِفِها
ثَديُ السَماءِ رَضاعَ الفاطِرِ الباري
حَتّى إِذا أَدنَأَت فيهِ وَفاجَرَها
وَقامَ يَطرَحُها عَن جِسمِهِ الضاري
أَهوَت عَلى يَأسِها وَالبَأسُ يَنخَرُها
إِما الضَريعُ وَإِما العارُ فَاختاري
وَكَم وَلِيَ رَعى شَعباً فَأَهلَكَه
تَرعى عَلى زُهدِهِ أَرياقُ عِشّارِ
وَحاكَمَ سَفَلَت فيهِ وَداعَتُهُ
فَأَظهَرَت حَملاً في قَلبِ جَزّارِ
إِبليسُ خُذهُم جَميعاً في بَراقِعِهِم
وَارفَع جَناحَك عَن أَبكارِ أَوتاري
خُذهُم إِلَيكَ فَلا عادَت سُلالَتُهُم
وَعَقِّمِ النارَ يا إِبليسُ بِالنارِ

إلياس أبو شبكة.. شاعر العصف القلبي

شـــوقـــي بـزيـع

قليلة هي التجارب التي تنضح بالصدق والبراءة والالتحام بالحياة، كما هو حال الشاعر اللبناني إلياس أبو شبكة (١٩٠٣م - ١٩٤٧م)، فالشعر عنده لا يتغذّى من الأفكار التي يحملها الشاعر عن الأشياء، بل من حرائق الداخل واصطدام الشاعر بنفسه وبالعالم، بحيث تصبح اللغة محصلة طبيعية لهذه الحرائق وذلك الاصطدام. ولأنه ليس شاعر الأفكار المجردة والتوليد الذهني، رفض أبو شبكة إخضاع الشعر للنظريات والقواعد المُعلبة التي لا تُفضي، على الرغم من وجاهة بعضها، إلا إلى تعليب الإبداع وتدجينه وتضييق الخناق عليه. فالشعر عنده "كائن حي تحتشد فيه الطبيعة والحياة فلا يُقاس ولا يُوزن، والنظريات مذاهب وأغراض لا تعيش إلا على هامش الأدب العظيم".

تكفي نظرة متأنية إلى نتاج إلياس أبو شبكة للدلالة على البعد التاريخي لهذه التجربة، التي حملت روح عصرها على أكثر من صعيد. فالتمزّق والعصف النفسي، اللذان ظهرا في شخصية الشاعر وحكما جانبًا من نتاجه، كانا يعكسان في العمق وجدان جيله الممزق على المستويات الاجتماعية والسياسية والفكرية. وإذ كان لبنان، آنذاك، في فترة تشكّل مبهم، حيث يتداخل الديني والقومي والأيديولوجي، وتتصارع الإرادات والمصالح الدولية المختلفة، فقد بدا نتاج كثير من شعرائه وكتّابه، من أمثال: جبران ونعيمة والريحاني وفوزي المعلوف وإيليا أبو ماضي، وصولا إلى أبو شبكة نفسه، المرآة الأكثر تعبيرًا عن اضطراب المرحلة وتعدد الخيارات والقلق على المصير.

المناخ الذي عاش فيه الشاعر

لأن الحرية امتحان دائم أكثر ما تظهر صعوبته عند مفترقات الطرق، فليس من قبيل المصادفة أن تأخذ أعمال ذلك الجيل مسار التمرد والرفض والاندفاع العاتي، قبل أن تؤتي في فترة لاحقة ثمار الحكمة وطمأنينة المصالحة مع النفس والعالم. ولا بدّ من الإشارة في هذا السياق إلى أن مكابدة الكتّاب والشعراء في بدايات القرن الفائت وشعورهم المفرط بالغربة، قد اتخذا أشكالا وتعبيرات مختلفة، تراوح بين الغربة الجسدية والاقتلاع من المكان الأصلي، وبين غربة القلب والروح. وصولا إلى الغربة الميتافيزيقية المتصلة بمعنى الوجود نفسه. وهو ما ظهر جليًا وبأساليب وتعبيرات مختلفة من خلال تجارب جبران خليل جبران، وإيليا أبو ماضي، وفوزي المعلوف وغيرهم.

ففي نصوص أبو ماضي المبكرة، وهو المعروف بنظرته المتفائلة إلى الحياة، تسود نبرة من المرارة والقنوط والتبرم بالأشياء. وإذا كان جبران يعبر في كتابيه "العواصف" و"الأرواح المتمردة" عن نقمة مماثلة على واقع بلاده البائس والمستكين، داعيًا حفاري القبور إلى دفن الموتى، بشرًا كانوا أم تقاليد، فإن ميخائيل نعيمة يرى في حالة الموات الشامل، التي تلف بلاده من كل صوب، ما يجعل من دفن الواقع المُزري، بأمواته وأحيائه، الشرط الضروري الذي ينبغي توفره للوصول إلى القيامة الموعودة. ولم يكن إلياس أبو شبكة من جهته بعيدًا عن هذا المناخ، وهو الذي تضافر ضده يتمّه المبكر وشقاء بلاده، واصطدام تكوينه المثالي بالجانب الفاسد من الوجود.

من النقمة إلى المصالحة مع الذات

لكن اللافت في الآن نفسه أن معظم الكتّاب والشعراء والمفكرين عقدوا مصالحات لاحقة بينهم وبين ذواتهم، أو بينهم وبين العالم، سواء بفعل النضج واختمار التجربة، أو مع هبوب النذر الأولى لحركات التحرر ورياح التغيير، أو من خلال العثور في الحب على مآل خلاص. وهو ما نلمح بعض ترجماته في قصائد أبو ماضي الداعية إلى التفاؤل، والممجدة للتحالف الظافر بين جمال النفس وجمال الوجود، كما نلمح ذلك في كتاب "النبي" لجبران، وفي أعمال أبو شبكة الأخيرة "الألحان" و"نداء القلب" و"إلى الأبد".

وإذا كان أكثر النقاد والباحثين قد ذهبوا إلى اعتبار أبو شبكة شاعرًا رومانسيًا، ومن بينهم صلاح لبكي الذي رأى أن "الرومنطيقية قد تجلّت في شعر إلياس أبو شبكة في أتم مظاهرها"، فإن نقادًا آخرين رفضوا حشر نتاج الشاعر الممتنع في الخانة الرومانسية دون سواها. ومن بين هؤلاء عبداللطيف شرارة الذي عدّ أن القائلين برومنطيقية أبو شبكة قد ضلوا الطريق، وهم يحدقون إلى الإطار دون الصورة، ولم يتبينوا الجوهر وراء الخطأ، وجرفهم تيار التصنيف والتعميم حتى حجبهم عن الأصالة في شاعريته.

أي تتبع دقيق لشعر الحداثة اللاحق، لا بدّ أن يقودنا إلى ملاحظة البصمات الواضحة التي تركها أبو شبكة في أعمال بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وخليل حاوي وآخرين.

وفي حين أن الناقدة اللبنانية، يمنى العيد، لا تنفي صفة الرومانسية عن بعض نتاج الشاعر، إلا أنها تلح من جهتها على جانب الالتزام الاجتماعي والوطني في شعره، وعلى انحيازه للفقراء والطبقات الاجتماعية الدنيا. أمّا الكاتب محمد دكروب، فيذهب بالإسقاط النقدي الأيديولوجي إلى نهاياته، معتبرًا أن أبو شبكة قد تأثر بالثورة البلشفية التي عايش انطلاقتها في يفاعته، والتي أسهمت في تشكيل وعيه الطبقي والاجتماعي. ويستدل دكروب على ذلك بقصيدة "العامل الثائر"، التي ألقاها الشاعر خلال مهرجان أقامه حزب الشعب اللبناني في يوم العمال عام ١٩٢٣م.

ومع أن ما ذهب إليه كل من شرارة والعيد ودكروب لم يكن مجافيًا تمامًا للحقيقة، إلا أن الجانب "الملتزم" من نتاج الشاعر لا يعكس سوى الجانب العابر من نقمته على الواقع. أمّا الجانب الأعمق من نتاجه، فيتمثل في قصائد المرأة والحب، حيث ينعدم كل يقين قاطع، وحيث النفس الإنسانية ساحة مفتوحة ومتناهية بين الملائكة والشياطين. وإذا كان في تجربة أبو شبكة ما يتصل بالواقعية حينًا، وبالرمزية حينًا آخر، وبالرومانسية حينًا ثالثًا، إلا أن هذه الأخيرة تشكل السمة الغالبة على نتاجه الشعري برمّته. ففي رده على بول فاليري في مقدمة "أفاعي الفردوس"، يرى أبو شبكة أن "الشاعر الحقيقي لا طاقة له على اختيار اللفظة، بل له من شعوره الزاخر ما يصرفه عن هذه الآلهية". وعنده أن عناصر الشعر المختلفة تجري كلها في حلبة واحدة، تتساوق من خلالها الفكرة والصورة واللغة والإيقاع.

ومن يتأمل عميقًا في باكورة أبو شبكة "القيثارة" الصادرة عام ١٩٢٦م، لا بدّ أن يلاحظ أن القصائد المتصلة باعتراض الشاعر السياسي على الواقع لم تمنعه حتى في أوج صباه من الحفر عن الشعر في أكثر المناطق التصاقًا بنفسه وبهواجسه العاطفية والميتافيزيقية، متلمّسًا الجمال في قيعانه المحزنة، فيما تظهر البراءة بوصفها وردة نادرة في عالم الرذيلة المغوي.

أمّا مجموعته "غلواء"، وهي الاسم المعدل لحبيبته وزوجته اللاحقة أولغا ساروفيم، فتعكس أكثر من سابقتها الطبيعة المازقية لشخصية الشاعر، من خلال التجربة القاسية التي عاشتها حبيبته خلال زيارتها لإحدى قريباتها في مدينة صور، ومن ثمّ وقوفها الصادم على انحراف هذه القرية. ومع سقوط غلواء فريسة للمرض والحمّى، يتحول الشاعر من جهته إلى فريسة مماثلة للصراع الضاري بين الغفة والدنس، بين الجسد الترابي والروح السماوية. إلا أن أبو شبكة يتحوّله، كما هو شأن سائر الرومانسيين، إلى ممجد للألم وداعية له، يكشف عن نزوعه النفسي المازوشي، وعن اعتقاد لديه بأن الألم وصراع الخيارات هما الشرطان اللازمان لكل إبداع، وهو ما تؤكده أبياته:

اجرح القلب واسقِ شعرك منه إنما الشعر خمرةُ الأقلامِ
وإذا القلبُ لم يُرقْقْ بحبِّ حجّرته ضغائنُ الأيامِ
رُبَّ جرحٍ قد صار ينبُوع شعرٍ تلتقي عنده النفوس الظوامي

روح عصر وتحوُّلاته

لكن حاجة أبو شبكة الملحة للوصول إلى بر أمن، ما تلبث بفعل علاقة عاطفية خارج الزواج مع امرأة ماكرة، أن تخلي مكانها إلى نوع أكثر فتكا من الآلام والتساؤلات، وهو ما عبّرت عنه مجموعته الشعرية "أفاعي الفردوس"، التي تتجاوز كونها مجموعته الأكثر نضجًا فحسب، لتصبح وفق كثير من النقاد واحدة من أفضل الأعمال تعبيرًا عن روح ذلك العصر وتحوُّلاته وحساسيته الجديدة.

وفي هذه المجموعة، التي تذكّر بتجربة بودلير الرائدة في "أزهار الشر"، تبدو الكتابة أقرب إلى الاحتراق الداخلي ونزيف الشرايين منها إلى أمر آخر. ويبلغ سخط أبو شبكة على هذه المرأة في هذا العمل حدوده القصوى. ولكن مع وصول آلامه واحتداماته العصبية إلى ذروتها، يعود أبو شبكة مع حب جديد وامرأة مختلفة وبالغة الحنو، ليتخفف من عواصفه وأوزار ماضيه، وليرى العالم أجمل وأنقى من ذي قبل، كما لو أنه "عوليس" معاصر يعود إلى "إيثاكا" الطفولة والبراءة الوادعة، على حد تعبير الناقد اللبناني إيليا حاوي.

وإذ يحول الشاعر ديوانه "الألحان" إلى معرض يستعيد فيه الجغرافيا اللبنانية المدهشة والموزعة بين الجبال والشواطئ، تترنح الأنوثة في "نداء القلب" و"إلى الأبد" على حبال الجناس الناقص بين المرأة والمرآة، كما تضيق المسافة بين العاشق والمعشوق للتشارف على الإضمحلال، فيخاطب الشاعر حبيبته بالقول:

أحسُّ خيالي في خيالك جاريًا وروحك في روحي وعقلك في عقلي
وأشطرُ من كياني أضعته ولما تلاقينا اهتديتُ إلى أصلي

على أن أي تتبع دقيق لشعر الحداثة اللاحق، لا بدّ أن يقودنا إلى ملاحظة البصمات الواضحة التي تركها أبو شبكة في أعمال بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وخليل حاوي وآخرين غيرهم. وإذا كان التاريخ، أخيرًا، مليئا بالمصادفات، إلا أنه ليس أعمى بالقطع. وهو ما يُخرج بعض الأحداث المتزامنة من خانة المصادفة، ليُدخلها في خانة الدلالة والرمز، أو منطق الصيرورة. لذلك، فإن التزامن اللافت بين رحيل إلياس أبو شبكة عن هذا العالم عام ١٩٤٧م، وبين ولادة الحداثة الشعرية في السنة نفسها، ليس ضربًا من ضروب المصادفة المجردة، بل يبدو وكأنه نقل رمزي لشعلة الحداثة من يد إلى يد، ومن مخيلة إلى أخرى.

مجلة (القافلة)

أفاعي إلياس أبو شبكة وأزهار بودلير

نمر سعدي

إلياس أبو شبكة شاعرٌ رومانسيٌّ مبدع وأَديبٌ ومترجم لبناني كبير، ولد في ٣ مايو ١٩٠٣ في بروفيدانس بالولايات المتحدة الأمريكية. واستقرَّ والداهُ في عام ١٩٠٤ في بلدتهما الأصلية زوق مكايل في منطقة كسروان الحالية في جبل لبنان، وهي مدينة تطل على البحر الأبيض المتوسط وتشتهر بجمالها الطبيعي. وكان إلياس حينها لم يتجاوز السنة من عمره. وأصبح معتمّاً بالشعر في سن مبكرة. أسَّسَ في شبابه «عُصْبَةَ العَشَرَة» الأَدَبِيَّةَ الَّتي ضَمَّتْ عَدَدًا مِنَ الكُتَّابِ والأُدَباءِ اللبنانيِّينَ الَّذِينَ ثارُوا عَلى الأَساليبِ القَدِيمةِ للأَدَبِ، وعَمِلُوا عَلى كَسْرِ الجُمودِ الفِكْرِيِّ الَّذِي كانَ فِي الحَياةِ الثَّقافِيَّةِ العَرَبِيَّة.

وأخذَ شاعرية إلياس سبيلها إلى النضج الفني في مطلع العقد الرابع من القرن الفائت، بعدما أصدر ديوانه الشعير «أفاعي الفردوس» عام ١٩٣٨، الذي أحدث ضجة في الأوساط الثقافية العربية، إذ رسم بمهارة فنية عالية لوحات نابضة بالحياة والحزن لحالته النفسية الثائرة في «أفاعي الفردوس» التي شدتها صلة تناظرية قوية ومتينة بديوان «أزهار الشر» للشاعر الفرنسي شارل بودلير، من حيث واقعية وقتامة التصوير الحسي والغموض والإبهام، وغرائبية الصور المُشكَّلة بتراكيب لغوية جديدة. شفافة ومبتكرة، كما وشدت «أفاعي الفردوس» صلات بـ«ليالي» ألفرد دي موسيه من حيث التمرد والانفعال والتوتر والقلق العاصف.

القصائد المنسيّة، بعبق النوّار والزنابق، تذكرني برغبات وأحلام تشعُّ في أقاصي الروح، بأشياء لا تحصى يصعب وصفها الآن، ولكنها تستحضر شيئًا ما، عالما ما.. مناخات عذبة معذّبة، نساء يتأنقن تأنقا فائضا عن الحاجة قبل الذهاب لسهرة رقص. أبو شبكة يذكرني بالصبا.. بالقصائد الأولى، بخضرة أمطار نيسان، بأقواس قزح سراببة. كأنّ قصائده قنطرة من هواء وماء تمتدّ إلى أيام وأحلام خلت. تستحضرها وتجعلني أعيشها حتى لو كنتُ في أوج الخريف أو الشتاء، تماما كقصائد شبيهه الشاعر الفرنسي الرجيم شارل بودلير، التي تقودني مراوغة مراودة إلى قبو الشتاء بأمطاره وعواصفه وأنوائه. كأن ربيع أبو شبكة لم يكن إلا ليتمّم نقصان شتاء صاحب "سأم باريس" أو لتقل إن ربيع أبو شبكة ينبثق كزرّ الوردة من كمّ معطف الشريد الفرنسي الضائع والعبقري المسوس بوهج الموارئيات والمختلج كحمامة مذعورة في ريح ديسمبر. تحضر قصائد أبو شبكة ويحضر معها طيفه النحيل المعذّب، الطائر المرتجف فوق حرائق الشعر. يقول فيه مارون عبّود: "في خُلقه إباء حتى العنجَهيّة. يريك نفرات هي بنت عِز الجنون... في أحشائه آلام متقدّة، آلام من الحبّ، آلام من أعباء الحياة، حبّ مجنون يشخر كوقود ألبّلان. يتعالى حتى يدرك السقف ثم يهبط رويدا رويدا". ينهض في زرقة الفجر ويكتب وسيجارته وفنجان قهوته لا يفارقان شفتيه. يوغل في سراب فرايديه الأرضيّة حتى أبعد القصائد الضوئية. وهو في حضوره القلق دائما ما يستدعي صنوه وتوأم روحه بودلير صاحب أزهار الشر.. الديوان الذي غيّر مجرى الشعر الفرنسي إلى الأبد وكان بداية ثورة شعرية عارمة على أسلوب الشعراء الكلاسيكيّين الرومانسيّين وعلى رأسهم فيكتور هوغو، وعلامة فارقة رئيسيّة في مشهدية الشعر العالمي والحداثة الشعريّة. نجد ديوان أفاعي الفردوس يعانق ديوان أزهار الشر، يتناسل منه أو يتماهى معه ويلتقي في منعرجات ودوائر كثيرة ويشتبك اشتباكا حميميا به في مستويات وجماليات الخطاب الشعري، وفي مطارح وفضاءات جسدية، ولكن ديوان أفاعي الفردوس لم يخُضْ في طين الشهوة والقلق الروحي كما خَوَضَ ديوانُ أزهار الشر لبودلير مما جعله يصبُّ فيه كلّ عذابات نفسه البوهيمية الباحثة عن الحرية والسعادة وإطفاء الرغبة.

عاش بودلير حياة التشرّد والفقر والحرمان وأحب أكثر من امرأة ولكن قلبه لم يخفق بوله إلا لامرأة واحدة كانت واسطة العقد، وشكلت أبجديته العاشقة في معجم نسائه، ولم يجد الحب الحقيقي إلا مع سمرائه الفاتنة جان ديفال التي يخاطبها في قصيدته "الشرفة" محترقا بنار حبه الأزليّة الخمساسية، حيث نلمس في كل كلمة من كلماتها أثر اللوعة والشغف والحزن والشوق: "يا مصدر الذكريات وسيدة الخليلات يا أنت/ يا كل ملاذي يا أنت يا كل واجباتي/ سوف تتذكرين روعة المداعبة/ وحلاوة الموقد وسحر الأمسيات/ يا مصدر الذكريات وسيدة الخليلات / في الأماسي المضاءة بأوار الموقد/ والتي قضيناها في الشرفة المجللة بالضباب الوردي/ كم كان صدرك حلواً وقلبك طيباً/ فكثيراً ما تحدثنا بأشياء خالدة/ في الأماسي المضاءة بأوار الموقد/ والتي قضيناها في الشرفة/ المجللة بالضباب الوردي/ كم كان صدرك حلواً وقلبك طيباً/ فكثيراً ما تحدثنا بأشياء خالدة/ في الأماسي المضاءة بأوار الموقد/ ما أجمل الشموس/ في الأمسيات الدافئة/ وأعمق الفضاء/ وأجرأ القلوب/ عندما كنت أنعطف نحوك يا ملكة المعبودين/ كنت أخالني أشمّ رائحة دمك/ ما أجمل الشموس في الأمسيات الدافئة/ كان الليل يدلهمّ كأنه الجدار الفاصل/ ولكن عينيّ في حلكته كانتا تستشفان حدقتيك / وكنت أتجرع أنفاسك أيتها السمّ والحلاوة/ وقدماك بين راحتيّ الأخويتين/ كانتا تستسلمان لنوم هادئ

عندما كان الليل يدلهمّ كأنه الجدار الفاصل/ إني أعرف فنّ إثارة اللحظات السعيدة/ وأعرف فنّ إحياء ماضيّ المتكور عند ركبتيك / ماذا يفيدني أن أفتش عن مفاتنك الناعسة / في مكان غير جسدك العزيز وقلبك الطيب / لأني أعرف فنّ إثارة اللحظات السعيدة/ هذه العهود والعطور والقبلات بلا عدد/ هل ستصعد من هوة لا قرار له/ كما ترتفع في السماء الشموس المشرقة/ بعد أن اغتسلت في أعماق البحار السحيقة / أيتها العهود والعطور أيتها القبلات بلا عدد».

وعاش إلياس أبو شبكة نرفانا الحب مع أربع نساء.. وربما أكثر، كنّ حبه الأرضي وأفاعي فردوسه المبثوثة، قسّم عليهن قصائده الكثيرة وأوجاعَ روحه وزفرات قلبه وسراب آلامه.. منهن من لم يصرّح بأسمائهن الحقيقية في دواوينه. بدءا بزوجته أولغا التي سمّاها غلواء.. وحبيبته ليلى العضم المرأة المتزوجة التي عشقها وأخلص لحبها حتى آخر أيامه وكتب لها أجمل قصائده وأكثر رسائله حميمية وعشقا، الرسائل التي أطعمها للنار من ظنوا أنفسهم أوصياء على صاحبتها. مرورا بوردة واسمها الحقيقي روز، وأخيرا هادية وهي المغنية السمراء كما سمّاها بعض من عاصر أبي شبكة. ولكن أغلب الظنّ أنه كتبَ قصائد ديوانه الأجمل "أفاعي الفردوس" من وحي حبّه المعذّب الأبدي لغلواء:

لا تَقنطي إن رَأيتِ الكأسَ فارِغَةً / يَوماً ففي كلِّ عامٍ يَنضُجُ العِنَبُ / صُبّي الخُمورَ وَلا تُبقي عَلى مُهَجٍ / مَوجَ الشَبابِ عَلى رِجليكِ يَصطَخِبُ / أَما أَنا وَلَو استَسلَمتُ أَمسِ إِلى / خَمرِ اللَيالي فَقَلبي لَيسَ يَنشَعِبُ / قَد أَشرَبُ الخَمرَ لَكِن لا أُنَسِّيها / وَأَقرَبُ الإِثمَ لَكِن لَستُ أَرتَكِبُ.

منذ أكثر من ربع قرن ما زلتُ أتذكّر مرثية الشاعر السوداني الكبير المبدع محمد الفيتوري (عاشق بودلير) لأبي شبكة في ذكرى رحيله الخمسين يوم وقف مع شعراء عرب كبار منهم العراقي عبد الوهاب البياتي والسوري سليمان العيسى والمصري فاروق شوشة واللبناني سعيد عقل لبلقوا قصائدهم في هذه المناسبة، وكان ثمة حضور كبير يتقدمه رئيس الجمهورية اللبنانية حينذاك. وما زال صدى قصيدة الفيتوري "ترنيمة في قداس أبي شبكة" يهبُّ من أقاصي الخلود والأبدية ويتردّدُ في السمع بعد ما يقارب الثلاثة عقود.

ويتهادى مطلعُ هذه القصيدة الرائعة على أمواج موسيقى بحر البسيط العذبة: "برقٌ.. وفي مقلتيك الشعرُ يلتهبُ / وعاصفٌ ويداك النار والذهبُ / ما كان أبهاك لولا أنه قدرٌ / يقسو، ويلهو، ويسترضي وينتخبُ / ما كان أغناك بالأحلام لو صدقت / أحلامٌ من سكنوا في الضوء واحتجبوا / يا غارسَ الزنبقات الحمر في جسد / توحّشَ القهرُ في جنبيه والتعبُ / دعني أضيء شمعةً في راحتيك وقد / أبكي قليلاً ويبكي في دمي الغضبُ/ دعني أباغتكَ فالأطيافُ ناعسةٌ / خلفَ السياج ومسك الليل ينسكبُ».

ويكتب الفيتوري في مقدمة أعماله الكاملة: "لقد عثرت اليوم على شاعر فرنسي، اسمه شارل بودلير، يكاد يفقدني صوابي، إنه ذو طبيعة شعرية غير عادية، قادرة على خلق الصور وتجسيد المشاعر والأفكار وتكثيف الأوضاع النفسية والاجتماعية في حالات فقدان تناسقها وانسجامها فنيًا. إنّ لدى بودلير بصيرة تنفذ إلى ما وراء الأشكال والمظاهر، إنني غارق هذه المرحلة حتى الغيبوبة والدوار في عالم بودلير المخيف والمعذّب في أزهار الشر. الأروع من ذلك أن معبودته الأرضية جارية سوداء اسمها جان ديفال. بودلير الأرستقراطي الأبيض، يُحطم الفوارق الطبقية واللونية بطريقته الخاصة، سيّان كان من أجل الجسد أو من أجل الشعر. إن شارل بودلير يقترب مني أكثر فأكثر، كلما تعمّقت في تجاربه وتمزقاته الحسيّة والوجدانية. ذلك الشاعر الملعون.. الجرح والسكين، الضحية والجلاد. إنني أنتمي إليه بصلة ما».

عن (ديوان العرب)

قراءة في تجربة «إلياس أبوشبكة الشعريَّة» ورؤاه

عبد المجيد زراقط

تهدف هذه المقالة إلى التعريف بتجربة إلياس أبو شبكة الشعريَّة التي خلُصت إلى بلورة رؤى لقضيتين مركزيتين؛ أولاهما الحياة وقضاياها، وثانيتهما الشّعر وقضاياه.

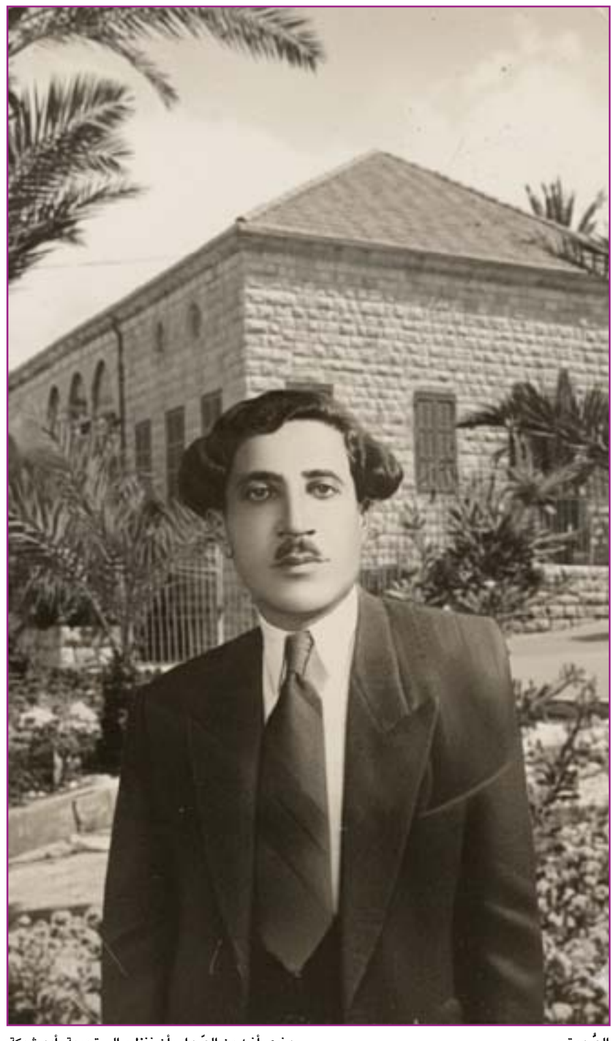

أصدر أبو شبكة ديوانه الشهير «أفاعي الفردوس» في عام ١٩٣٨، فأحدث جدلا في الأوساط الثقافية، إن من حيث النُصوص الشعرية التي تصوّر حالات نفسيّة تتمثّل في التمرُّد والتوتر والقلق، وإن من حيث الآراء التي تضمّنتها مقدّمته، التي وضع فيها أسس رؤيته الرومانسيّة، ووجد النُقّاد آنذاك قرابة بين ديوانه هذا وديوان «أزهار الشر» لبودلير، و«ليالي» موسيه.

كان يستيقظ كل صباح بين الرابعة والخامسة، ويبدأ الكتابة وركوة القهوة إلى جانب، والنارجيلة إلى الجانب الآخر، وكان إذا بدأ النظم يحرّك يديه كأنّه يلقي خطابًا في مهرجان، ويهزّ رأسه وكتفيه ورجليه كأنّه مصاب بالحمّى.

كان أبو شبكة، في لبنان، «أبرز شعراء العهد الجديد»، فقد وضع أسس الاتجاه الرومانسي، نظريًا، في مقدمة «أفاعي الفردوس»، وممارسة في عطائه الشعري.

يعدُّ أبو شبكة الشعر «لغة الروح»، ويراه عصيًا على التحديد، يصدر عن النفس، ويستخدم الطبيعة قيثارة له. ويصدر تعبيرًا كليًا مرتديًا ثوبه الكامل، وعناصره متساوية في الأهمّيّة.

أمّا الشاعر العظيم، عند أبو شبكة، فهو ذلك الكائن الذي يملك شعلةً سريّة تجعله فوق النظريات والمدارس، لأن إبداعه بثّ الذات وفيضها وليس صناعة، كما يقول «فاليري وأتباعه».

وكان يرى أنّ الشّاعر هو ذلك» التوتُّر الأعظم» الذي تنقر عليه أحاسيس الناس ومشاعرهم، فيبدع اللّحن العظيم الخالد، وذلك الكائن الذي يرى ما لا يراه النّاس، فكأنّه يمتلك نورًا عميقًا تمتلئ به نفسه، فعندما ينظر إلى العالم يفيض ذلك النُّور، فيكشف.

وإن يكن الشاعر يمتلك هذه الموهبة، فإنّه، كما يرى أبو شبكة،» بقدر ما تكون ثقافته من الرُّقي والذّوق، والموسيقى في روحه، يكون البيان راقيًا في شعره.» لهذا كانت فرنسا من منظوره» الفرن الذي يخبز فيه خبز الإنسانيّة الثقافي».

يعاني الشاعر الموهوب المثقّف، فيسقي قلَمَه ألمَه، وهو صاحب هذا البيت المشهور:

إجّرح القلبَ واسْقِ شعرك منه
فَدَمُ القلبِ خُمرةُ الأقلام

لكنّ الألم المعيش لا يغدو شعرًا إلّا إذا صُهِرَ في النّفس، ففي هذا المِعْيش يتمّ الخلق، لذا كان لا بدّ من التمييز بين «الشعر /التعبير »و«الشّعر /الفن.»

لا يعني هذا أنّ الشّاعر» صَانعٌ» ينظم ساعة يشاء، وإنّما يعني أنّ الإنسان الشاعر يمتلك» قدرة خارقة »هي جوهر نفسه، ففي هذا الجوهر تنصهر معطيات العيش، وتفيض شعرًا من» المصْهر »الذي تشترك قوى الإنسان جميعها في تكوينه» جوهرًا /روحًا.»

وبهذا، يكون الشعر» لغة الرُّوح »هذه» أو «لغة الحسّ الوجداني العميق »المتمثّلة» مجازًا به» النّور الأسمى» الكاشف أشياء هذا العالم وقضاياه، وتتعاضد فيه عناصره جميعها،» فلا تنحطّ الفكرة عن الموسيقى أو الصُّورة.»

ولا بدّ للشّاعر، كي يكون شعره لغة روح الذّات المتميّزة، والمتمثّلة ذات الفرد المبدع والجماعة في آن، من أن يمتلك اللّغة، وإذ يفعل ذلك تسلم إليه أسرارها، فيبدع ما ينقل الحالة الشعريّة ويثيرها. واللّغة العربيّة الفصحى هي، لكلّ شاعر بها،» أعظم ترجمان عن الذّات.»

عن وظيفة الشاعر ودوره، يقول أبو شبكة: «عصفور... عصفور ....طار ...طار وهبط، ما يستطيع عصفور صغير؟.»!

نتيجة قراءة النماذج الشعرية التي سطّرها أبو شبكة ونظراؤه القول إنّ الشعراء الرومانسيين لم يتجاوزوا صنيع الشعراء المهجريين، فكانت قصيدتهم اتباعيّة البناء، أو تنويعًا على القصيدة الاتباعية .وإن كان لديهم من تجديد فهو لا يتجاوز إطار التنويع البنائي الذي توجّهه مقوّمات القصيدة الاتباعيّة نفسها، محدّدة في الوزن الخليلي، أو تفاعيله، وفي القافية منوّعة أحيانًا، وفي شكل بنية القصيدة، منوّعًا عليه أحيانًا أيضا.

التجربة الشعريّة

١- المرأة والحب

يروي عارفو أبو شبكة أنهم لم يروه يضحك ملء فمه ضحكة غبطة وارتياح .هذا هو الشقاء الشخصي الذي بدأ منذ اغتيال والده، وتكثّف لدى العيش في مجتمع يسوده الخلل، وبدأ التعبير عنه مع بداية شقاء إنساني تمثّل في الحرب العالمية الأولى، وعبر عن فاتحة ذلك الشقاء في مجموعته الشعرية الأولى« القيثارة.»

في فضاء هذا الشقاء المركّب، كان لا بدّ من« عسل مُحَل»، فكانت المرأة /الحبُّ هذا العسل، إذ إنّه أحبّ وهو في السابعة عشرة من عمره امرأة تكبره بثلاث سنوات هي أولغا ساروفيم، أحبّها ثلاث سنوات، ثمّ خطبها، وبعد سبع سنوات من الخطبة تزوجها، زيجة عجيبة، إذ استدعى الخوري إلى بيتها، وبعد إجراء عقد الزواج ذهب لينام في بيته.

غنّى قصّة علاقته بأولغا في مطوّلة شعرية قصصيّة غنائية، نظم قصائدها بين عامي ١٩٢٦ و ١٩٣٢.تتألف هذه القصيدة من أناشيد، موزّعة على أربعة أقسام هي:

– ١تعريف بالفتاة، ووصف جمالها المتمزج بجمال الطبيعة، – ٢ عذاب الضمير، – ٣ التجلّي :السعادة لا تتحقق إلا من طريق الجلجلة، – ٤ الغفران.

سمّى الشاعر مطوّلته الشعرية هذه باسم« غلواء»، وفيه تبديل لأحرف اسم الفتاة، ليكون اسم المطوّلة علامة دالّة، من نحو أوّل، على المبالغة في الغلوّ، ومن نحو ثان على اسم عربي، عروس شعر، شبيه بأسماء عرائس الشّعر العربيّة، مثل سمراء وعفراء، ومن نحو ثالث على وزن حواء، بوصفها أمّ البشر المتسبّبة في النّزول من الجنة إلى الأرض، ليسعى البشر فيها إلى المغفرة، ثمّ العودة إلى الفردوس المفقود، علاوة على دلالة هذا الاسم ذ اسم حواء ذ على المرأة بعامّة، فكأن غلواء هي أنموذج المرأة الخالد.

في مرحلة سابقة، وقبل الخلوص إلى عهد الغفران، كانت المرأة تمثّل« أفعى الفردوس»، قال« :إن النساء، إذا راوغن لا عجب /فهن من جنة الفردوس أمزجة .»فإن كان الشاعر يسعى إلى نيل« العسل المحلى »من طريق الاستمتاع بالحب، فإن« الأفعى »تكمن في هذا العسل، يقول« :المرأة أفعى أصبيت بحمّى المجد .»وتمثل هذا في مجموعته الشعرية« أفاعي الفردوس »التي بلغ فيها قمة شعريته، وقد نظم قصائدها بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٨، وعندما سئل :لماذا اخترت لديوانك، أو ارتضيت له، كلمة أفاع في حين أنه من وحي أفعى واحدة؟ أجاب« :إن أفعاي بتسبعة رؤوس، فهي سبع أفاع.»

في« أفاعي الفردوس»، كما في مجموعاته الشعرية الأخرى، يجري الشعر من منبعه الأصيل، اعترافات صادقة، تؤكد قوله:

فيا أذنٌ لا تخدعك في القول بهجةٌ
ويا قلبُ علّم أعذبُ الشعر ما صدَقْ

ففيها« وصف للشهوات الجامحة، وصوت للحياة كما هي عارية »من أغطيتها، وبوح أعماق النفس الإنسانية، حيث كوامن الرّغبات، مما جعلها« فتحًا جديدًا »في تاريخ الشعر العربي.

ثمّ عاش تجربة مع امرأة متزوّجة ولديها ولد، هي وردة، الجميلة، ذات الأنوثة العارمة، ولم يأثم معها، فهو كما يقول فؤاد حداد« :ضمير في قعر الخطيئة»، فهرب من مخدعها، وأنشد:

لا تقنطي، إن رأيت الكأس فارغةً
يومًا، ففي كل عام ينضج العنب

ثمّ تعرّف إلى ليلى، وقال فيها:

هي يا ربُّ فلذة منك في الحب
جرت من دموعك الخضراء

توّج هذا المسار من تجارب الحب، بتحوُّل الشاعر .يصف أبو شبكة هذا التحوّل، فيقول :«أيُّها الجمال البهي النّقي الذي يدُنّي بأمل الحياة، أيُّها الجمال الجميل سبع مرات الذي أعاد إليّ حبّ عيلتي، إني أباركك، لقد جعلت منّي، أنا الشاعر ذا الرؤى الجهنّميّة، شاعرًا حنونًا صافيًا هادئًا، فأنا مَدينٌ لك سبع مرّات.»

وهكذا طرح السؤال المقرّر حقيقة صار إليها الشاعر:

إذا فجّر الحب دنيا القلوب
فما تنفع الحطم الباقية؟!

عن مجلة (العربي) الكويتية

ونرى أنه من الصّواب أن ننظر إلى تجربة« أبو شبكة» الحياتية/ الشعرية، بوصفها مسارًا لم ينفكّ عن التكوّن منذ أن بدأ الشاعر تجسيد تجربة حياته نصوصًا شعرية، وتقديم معرفة جمالية شعرية بها، فشعره، كما هو، معروف، سجل جمالي لحياته.

عاش« أبو شبكة»، في أونة مبكرة، تجربة الفَقْد، فقَد الأب والثروة (والعجز عن تعويضه العملي، فسعى إلى التّعويض في ميادين بديلة، منها المرأة /الحب، نقد الواقع السياسي /الاجتماعي والدعوة إلى تغييره، وتمثّل ذلك وتمثيله نصوصًا شعرية، رائية كاشفة، علاوة على بلورة رؤى شعرية، تمثّلت في بيان شعري، جعله الشاعر مقدمة لمجموعته الشعرية، مع أنه لم يكن من أنصار النظريات الشعرية، وكان يسخر من« هَوَس» بعض النقّاد في نقل المصطلح الغربي بلفظه إلى العربيّة، مثل« رياليسم »الذي شاع مدّة، ثمّ شاع واستقرّ بدلا منه، المصطلح المترجم، وهو الواقعية، وتشبيهه، في ذلك، ومصطلحات منها :الكوبيسم = التكعيبيّة، والابريسم= الانطباعيّة، والفيوتشيريزم = المستقبليّة.

«أفاعي الفردوس» لإلياس أبو شبكة: على خطى بودلير... جزئياً

إبراهيم العريس

إذا كان اسم الشاعر اللبناني الياس أبو شبكة قد ارتبط منذ بداياته الشعرية في سنوات العشرين من القرن الفائت، باسم الشاعر الفرنسي شارل بودلير، فإن ما يمكن أن تقوله لنا قصائد مجموعته الثانية- في الترتيب التاريخي للظهور-، «أفاعي الفردوس»، هو ان تأثر شاعرنا اللبناني بزميله الفرنسي لم يكن مطلقاً بل جزئياً، على عكس ما هو شائع. حيث اننا في قصائد هذه المجموعة ستجابهنا ضروب عدة من التأثير لن يكون ذاك العائد الى بودلير سوى أقلها شأناً. صحيح ان أبو شبكة جعل مخطط مجموعته كلها وجوّها العام يسيران على خطى مجموعة بودلير «أزهار الشر»، لكن الصحيح أيضاً ان ثمة ما لا يقل عن ثلاثة عناصر أخرى تلعب دوراً كبيراً من دون ان تكون على علاقة مباشرة بشعر بودلير. وأول هذه العناصر هو الموت الذي تختلف نظرته اليه جذرياً عن رديفه لدى بودلير. فالموت لدى الشاعر اللبناني موت خاص مستقى من تجربتين ذاتيتين تتعلق أولاهما بموت أبيه غيلة كما سنرى، والثانية بإحساسه الدائم هو نفسه بحتمية موت قريب. ومن هنا نرى الموت يسيطر تماماً على فكره وقصائد المجموعة. لكنه موت يُحارَب بالسخرية وبالحكم عليه بالعدم. وبعد ذلك هناك الكتاب المقدس الذي قرأه أبو شبكة جيداً وارتكز الى الكثير من حكاياته في كتابته أقوى قصائده مستعيناً بشخصيات منه يحلّها بديلة عنه في القصيدة.

وبعد هذين العنصرين، ثمة المرأة التي تختلف لدى أبو شبكة عنها لدى بودلير اختلافاً جذرياً. بل إن النظرة الى المرأة لدى الشاعر الرومانسي اللبناني تكاد في تناقضاتها وتناقض النظرة إليها تكون صنوا للحياة نفسها: فهي المرغوبة المخشية، الحنون والخائنة. ولعله في قصائده يحاول ان يدفعها الى اختيار ما بين المواصفات الكثيرة التي يعزوها اليها. وهو ما يفعله مثلاً في واحدة من أجمل قصائد المجموعة والتي يخاطب فيها حبيبة- متوهمة؟!- هي «سليمى» قائلاً: «أسمعيني لحن الردى أسمعيني/فحياتي على شفار المنون- وادرفي دمعة عليّ/ فبعد الموت لا أستحق ان تبكيني- يا سليمى وقد أثار نحولي/ كامنات الردى على الشرين- ما تقولين عندما تنظرين/ القوم جاءوا إلي كي يحملوني -وأنا جثة بدون حراك/وخيال الحمام فوق جبيني- يا سليمى أنا أموت ضحوكا/ ليس هذا الوجود غير مجون (...)».

والحقيقة ان نظرة الياس أبو شبكة الى الموت والمرأة، وهي نظرة تبدو مجتمعة في هذه القصيدة بالتحديد، إنما تنبع تماماً من تجربته الذاتية، ولا سيما تلك المرتبطة بالمرأة وإن لم توضح الأبيات السابقة ذلك. فعلى رغم أن المرأة تحضر في كل شعر أبو شبكة وصولاً الى حبيبة أيامه الأخيرة «غلواء» والتي خصّها بآخر مجموعة صدرت له في حياته (١٩٤٥)، إلا أن حضورها مستقى مباشرة من امرأة الشعراء العذريين العرب الذين درسهم الشاعر في شكل خاص، لا من المرأة البودليرية... وذلكم أمر بات من الضروري التركيز عليه في اية قراءة لهذا الشاعر الذي من المؤسف أن «حداثة ما» خلال العقود الأخيرة غيّبته عن الساحة الشعرية العربية معيّبة معه جانباً أساسياً من الصورة العامة للذهنية العربية كما تجلت خلال النصف الأول من القرن العشرين وكان أبو شبكة من خير المعبرين عنا بحياته كما بشعره.

مهما يكن، بالنسبة الى شاعر من طينة الياس أبو شبكة ستكون المفاجأة الأولى لمن يقرأ شعره ويعجب به، ان يكتشف ان هذا الشاعر لم يعبّر في حقيقة أمره سوى أربع وأربعين سنة، قضى العامين الأخيرين منها يصارع داء العضال الذي اصابه وأودى به، وقضى سنواتها الأولى وهو يعيش هاجس الموت الذي قضى على والده، غيلة عن طريق القتل، حين هاجمه لصوص في ١٩١٤ وقتلوه فيما كان يقوم برحلة بين بورسعيد في مصر والخرطوم في السودان.

وفي كل الأحوال ربما كان الانطباع الأول الذي تتركه حياة شاعر الياس أبو شبكة لدى قارئه، هو انطباع من يجد نفسه أمام شخص لم يعش سوى الصراع في سنوات عمره القصيرة، الصراع ضد هاجس الموت، الصراع ضد المرض، الصراع ضد جمود بعض رجال الدين من الذين خبرهم في طائفة اليسوعيين واصطدم بهم باكراً، والصراع ضد الجمود في الشعر العربي، ولكن ايضاً ضد الانفتاح المبالغ فيه على الرمزية الفرنسية من قبل شعراء لبنانيين وعرب كان الياس أبو شبكة يأخذ عليهم اهمالهم التراث العربي، ثم الصراع ضد الخطيئة التي كان غالباً ما يرتكبها وتخلف لديه آثاراً نفسية ضخمة نراها ماثلة بقوة في شعره، وأخيراً الصراع ضد المرض الذي فتك به وهو بعد في شرخ شبابه وأول عطائه.

ولد الياس أبو شبكة عام ١٩٠٣ في نيويورك خلال زيارة كانت أمه تقوم بها إلى أقارب لهم هناك، لكنه سرعان ما عاد الى لبنان، لتكون صدمته الأولى في ذلك الموت العنيف الذي قضى على أبيه. وتلقى الفتى تعليمه في مدرسة كهنوتية تركت لديه احساساً غريباً ومكثفاً بالبعد الروحي، الذي وجده متناقضاً مع ممارسات رجال الدين انفسهم، فكان ان لجأ الى قراءة الكتاب المقدس والنهل منه كبديل عن علاقة سيئة مع الكنيسة.

العربية أول الروافد الثقافية التي طبعت الياس أبو شبكة، تقول ان الثقافة الفرنسية هي الرافد الثاني، حيث تأثر بخاصة بالرومانطيقيين من امثال دي موسيه ولامرتين، قبل ان يكتشف شارل بودلير فيصبح شاعره الأثير ويكتب «افاعي الفردوس» تحت تأثير قراءته ديوان «ازاهير الشر». وأما الرافد الثالث الذي أثر في أبو شبكة فكان الكتاب المقدس الذي اكتشفه أبو شبكة واكتشف غناه الفكري والجمالي من خلال قراءته شعر ألفريد دي فينيّ الذي كان بدوره شديد التأثر بالكتاب المقدس.

وهكذا، اذ أطل أبو شبكة على الحياة الشعرية اللبنانية والعربية اطل وفي جعبته هذا الانفعال بثلاثة مكونات اشتغلت عليه في شكل جيد، وبدأ انطلاقته منها ولسان حاله يقول كما كتب، عام ١٩٣٦، في جريدة «المعرض»: «نريد أدباً جديداً نستقل به ونطبعه بطابع من نفوسنا، نريد ادباً يقوم على ثورة في الفكر والنظم والتقليد، نريد ادباً يخرج عن القاعدة التي سنها المتقدمون ولو تهجم المتهجمون. نريد ان نضحي بكل النظم والتقاليد الأدبية في سبيل الفكر والفن».

وتقول الباحثة ريتا عوض، ان اهم «ما في هذا القول ان الأدب الجديد الذي يدعو اليه أبو شبكة أدب عربي خالص، لا هو التقليدي القديم ولا هو في الوقت نفسه أدب غريب عنا». وهذا ما تستند فيه إلى قوله: «إنه تجديد نستقل به ونطبعه بطابع من نفوسنا، أي ان التجديد يجب ان يكون عربياً صرفاً غير مستورد من تجارب الآخرين ونتاجهم» وتضيف ريتا عوض «من هذا المنطلق رفض أبو شبكة اتباع المذاهب الفنية الغربية، وقاوم بشدة التيار الشعري العربي المقلد للمذهب الرمزي الرئيسي». غير ان أبو شبكة اذ رفض الرمزية الفرنسية، نراه يستعيض عنها باتباع ما للرومانسية الفرنسية. وهل كان يمكنه الا يكون رومانسيا ذاك الذي عاش حتى هاجس الموت طوال حياته من ناحية وشكلت المرأة، وحب المرأة بالنسبة اليه، بدءاً من أولغا التي احبها وتزوجها وصار اسمها في شعره «غلواء» وصولاً الى ليلى المتزوجة، وإلى المغنية المصرية السماء التي لا اسم لها في اي من المراجع التي كتبت عن الياس أبو شبكة؟

> مهما يكن لم يترك الياس أبو شبكة شعراً كثيراً، وإن كان قد ترك شعراً متفاوت التوجه والجودة خمس مجموعات حملت عناوين: «القيثارة» (١٩٢٦) و «افاعي الفردوس» (١٩٣٨) و «الألحان» (١٩٤٢) و «نداء القلب» (١٩٤٤) و «الى الأبد» (١٩٤٥) ثم «غلواء» (١٩٤٥)، بينما نشرت له بعد موته مجموعة شعرية عنوانها «صعيد الآلهة» تضم شعراً خطابياً. ونذكر للمناسبة ان أبو شبكة، اضافة الى شعره الرومانسي الخالص، كتب شعراً وطنياً وخطابياً، لا يرقى في مستواه بالطبع إلى مستوى شعره العميق الجميل الذي كتبه خلال المرحلة الأخيرة من حياته.

عن ارشيف صحيفة الحياة

الياس أبو شبكة: "شو في يَعمِلْ عَصفورْ زغير"؟

ميشال معيكي

هذي الصور التي رسمها احد ابناء جيلنا لشاعرهم

«القامة المشوقة... العصا السوداء... رزمةُ الصحف والمجلات في يده... يزرع قدميه الخفيفتين على الطريق، هازًا كتفيه بعصبيّة، عيناه حالمتان، مع مدى البحر إلى الأفق... واقفًا على المحطة، منتظرًا القطار، من الذوق إلى بيروت..."، هكذا وصفه صديقُه الأديب رئيف خوري.

شكّل الياس أبو شبكة في شعره ومع جيله من شعراء لبنان، لحظة ترميزية كبرى، لهويّة لبنان الشعرية باللغة العربية... هذه الشلّة من الشعراء، منحت لبنان واحة صفاء إبداعي، وحلمًا للأرض العربية وكتّابها وشعرائها! الذاتيّة اللبنانيّة، مع هؤلاء الروّاد، لم تشكّل انعزالًا بل تأمُّلًا وانفتاحًا وكثيرًا من الاستشراف. اطلاعاتهم على آداب الغرب الأوروبي ومشاركاتهم أغراضَ ومناحي الشعر العربي، استفادوا منها، شراءً وشموليةً ثقافية، وأفادوا الفكر العربي والترجمات العالمية.

يذكر فؤاد حبيش، صاحب "دار المكشوف" في أربعينات القرن الماضي، نقلًا عن صديقه الشاعر الياس أبو شبكة:

«وُلدت في نيويورك عام ١٩٠٣ أثناء سياحة والديَّ هناك. زرتُ باريس صيفًا. كان والدي غنيًّا. اغتاله لصوص سنة ١٩١٤ بين بور سعيد والخرطوم وكان يتفقّد مشاريعه. درست في عينطورة بين عامَي ١٩١١ و ١٩١٤. انقطعتُ عن الدراسة فترة الحرب العالمية الأولى، ثم عدت إلى "معهد الإخوة المريميّين" في جونية. ثم إلى عينطورة وكنت تلميذًا مشاكسًا!».

اهتمّ أبو شبكة بالناحية الاجتماعية - السياسية في زمانه. في كتابه "العمّال الصالحون" الصادر عام ١٩٢٧، نقرأ مُحًا من تفكيره. فهو يمجّد الطبقة العاملة عبر استيعابه التفاوت الطبقي، وهمومَ الحرمان والفقر. ورأى في المجتمع طبقةً مُستغِلّة وأخرى مُستغَلّة.

وعى أبو شبكة مأساة الهمّ الإجتماعي وخطورته، لكن طروحاته بقيت طوباوية رومانسية في الدعوة إلى الإصلاح.

في كتابه "الرسوم"، المتضمن مقالات نشرها في العام ١٩٣١ في مجلّة "المعرض" بتوقيع "رسّام"، تناول شخصيات سياسية لبنانية في زمانه، بنقد لاذع ودل على الفساد والنفاق... ففي فهمه للسياسة، أنها وسيلة لتكوين أمّة والمحافظة على شعبها.

في كتابه "روابط الفكر والروح بين الغرب والعُرْبَة"، الصادر في العام ١٩٤٥، حدّد العلاقة الفكريّة بين الشرق والغرب. قال: "لعدّة قرون خلت، بدأ الأوروبيّ يؤمن بسلطة العقل، متأثرًا بالفلسفة العربية، التي أحلّت العقل فوق السُّلطة، للفصل بين الحق والباطل. لكن خروج الحضارة العربية في أوروبا، أبقى الباطل هناك، حتى في عهد الانبعاث والنهضة!". ويستشهد أبو شبكة بالكاتب الفرنسي بول فاليري: "أقوام البحر المتوسط هي التي مشت الخطوات الأولى الواثقة، في البحث عن الظواهر، باستخدام قوى الفكر والتطوّر البشري...».

في مقدّمة مجموعته "أفاعي الفردوس" قال أبو شبكة: "ليس للفكر حدٌّ ولا تخوم... كيف نضع للحياة حدودًا ونحمي هدف الفكر؟».

في كتاب "الياس أبو شبكة - دراسات وذكريات" الصادر عن "دار المكشوف" نهاية خمسينات القرن الماضي، يذكر أبو شبكة في مقالة له نُشرت أول مرّة في مجلة "المعرض" بتاريخ ٢١ حزيران ١٩٣١، كيف كان يعيش في البيت وعن نمط حياته يقول: "أنهض من الفراش في الساعة الخامسة صباحًا، فأتناول قليلًا من الطعام، ثم أشعل النارجيلة وأضع أمامي ركوة قهوة كبيرة وأنصرف إلى الكتابة. أما الموضوع فأكون قد فكّرت به في الليلة الفائتة... عندما أنتهي، افتح النافذة وأضع قدميّ الإثنتين على منضدتي بين الأوراق والمحابر والأقلام، وأسند ظهري إلى الحائط وأنطلق في قراءة ما كتبت بصوت مرتفع جدًا جدًا، حتى أنّ عابري الطريق يقفون تحت النافذة ليتسمّعوا إلى صراخي، أو يتسلّقون أغراس التوت المنتشرة حول البيت ليروا جيّدًا من النافذة، ما يحدث في الغرفة.».

منذ بداياته الشعرية، لم يكتف أبو شبكة بالقصيدة التقليدية التي تتغنى بالجمال عن بعد، بل اقترب من عواطفه وجرّب أن يقول الحقيقة كما هي: الحب بكل نشوته، والخطيئة بكل وجعها.

في ديوانه الشهير "غلواء" كتب عن المرأة كملهمة وساحرة، وفي "الألحان" تناول موضوع الخطيئة بشجاعة نادرة في زمانه، فحوّل الجسد إلى رمز للصراع بين الرغبة والضمير.

حياته العاطفية كانت امتدادًا لشعره: سلسلة من الانفعالات والخيبات، لم يسلم منها قلبه ولا ضميره. أحبّ بشغف، وتألّم حتى الإدمان، اذ يُروى أنه لجأ أحيانًا إلى الكحول هربًا من قسوة واقعه ومن فواجع عاطفيّة تركت ندوبًا في نفسه.

الياس ابو شبكة لم يكن شاعرًا عاديًا يعبّر عن الحب والجمال فقط، بل كان يواجه العالم بقلب مفتوح وروح متمرّدة. شخصيّته في الشعر تنبض بالإباء والاعتداد بالنفس. وهذا الإباء ليس غرورًا، بل ثقة جذريّة في الحقائق الإنسانية التي يعيشها ويراها.

لم يختبئ أبو شبكة خلف الرموز التقليدية أو الكلمات الرقيقة التي تخفي حقيقة الشعور. في قصائده "أرجع لنا ما كان"، يظهر حبّه للماضي والحاضر معًا، لكنه يرفض التنازل عن نفسه أو القبول بالحبّ البارد أو المراوغة. الإباء كثيف في جرأته على الاعتراف بالحبّ والجرح في آن واحد!! رفض أبو شبكة الشعرَ الآمن الذي يُرضي الجميع. فعرض مشاعره بوضوح، حتى لو كانت صادمة، مستخدمًا صورًا قاسية: "الدم والريح والخمر».

«إجرح القلب واسقِ شعرك منه فدم القلب خمرة الأقلام"، معلنًا رفضه للتزيّف والمواربة، وأنّ الشعر الحقيقي يولد من الألم والصدق الداخلي!

إلى جرأته العاطفية، كان أبو شبكة يحمل إباء شعريًا واضحًا. لم يخشَ مواجهة الحب والألم معًا، ولم يرضَ بالمواربة أو التنازل عن مشاعره، فحوّل الألم والحنين الى نصوص صادقة، صادمة أحيانًا، لكنها دائمًا حقيقية. هو شاعر يكتب من قلبه مباشرة، يجعل القارئ يشعر بأنّ كل كلمة هي جزء من حياته، وأنّ الألم والحب والحنين ليست مجرّد صور شعرية، بل تجربة إنسانية حقيقية.

حروف أخيرة:

في المستشفى الفرنسي، ذلك السبت ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٧، دخل عليه صديقه، صاحب "دار المكشوف" فؤاد حبيش، وكان في الزفرات الأخيرة. تطلّع أبو شبكة صوب صديقه، تمتم مُودّعًا:

«عصفور زغير...طار وغط؛ شوفي يعمل عصفور زغير"؟!

عن (نداء الوطن)

manarat
www.almadasupplements.com
رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق
منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

الياس أبو شبكة.. في غلواء الشعر

سعدية مفرح

هذا شاعر آخر أتى إلى الدنيا ووضع بصمته الشعرية المميزة على أرض القصيدة العربية المزدحمة بأسماء المميزين، وغادر سريعا لا يلوي سوى على قصيدة اجتهد في تجويدها في سنواته الأخيرة وحبيبة عاش في كنف انشغاله بها معظم سنواته الشعرية، فكتب لها وكتب عنها بعد أن أعاد كتابتها وتركيب حروف اسمها بما يتوافق مع مستلزمات قصيدته بسمتها العربية.

اسمه إلياس أبو شبكة، ولد في العام ١٩٠٣ في إحدى الولايات المتحدة الأمريكية أثناء رحلة سياحية كان يقوم بها والداه آنذاك على عادة بعض الأسر الميسورة الحال. ونشأ أبو شبكة في كنف هذه الأسرة متنعما برغد العيش أثناء طفولته التي قضى شطرها الأكبر في قرية لبنانية جميلة من قرى كسروان، قبل أن يرحل والده مغدورا في سفر بعيد ولم يكن ذلك الطفل المدلل قد جاوز العاشرة بعد. وعندها تبدل حاله تدريجيا من الرغد إلى ما دونه بكثير.. وبقى ذلك الجرح غائرا في روحه المرهفة طوال حياته.

وبالرغم من أن إلياس أبو شبكة كان يعي حجم مسئولياته الجديدة في حياة عائلية لها مستلزماتها الكثيرة المستمدة من نمط معيشي موروث، إلا أن ذلك لم يبدل من طبيعته النزقة والتواقة للتغيير إلا قليلا.. فما إن انتظم في الدراسة بشكل نظامي سنوات قليلة حتى تركها بحجة اندلاع الحرب العالمية الأولى في العام ١٩١٤، لكن تركه للدراسة لم يمنعه من تثقيف نفسه بنفسه من خلال اطلاعه النهم على كل ما تقع عليه يداه من الكتب والدواوين الشعرية العربية القديمة، وهي القراءات التي غذت في نفسه طموحه الشعري المبكر فتجرأ على كتابة الكثير من القصائد الشعرية التي لم يتورع عن جمعها ونشرها في ديوان رغم ركاكة مستواها وصدى الشعراء الآخرين المباشر، والذي كان يتردد بين أرجائها، لكنه كان مصرًا دائمًا على أنه سيكتب قصيدته المشتهاة كما ينبغي ذات يوم، وكان يمشي في دروب الشعر الكثيرة، محاولا اكتشاف دربه الخاص من بينها، بعيدا عن دروب شهيرة لشعراء كان معذبا بهم ومنهم أبو العلاء المعري وجبران خليل جبران، وإن تقاطع مع دربيهما شرقًا وغربًا، قديمًا وحديثًا في أكثر من مغزى شعري وفكري وروحي أيضًا.

وقد ساعده عمله المبكر محررًا صحفيًا متنقلاً بين عدد من أشهر المطبوعات اللبنانية آنذاك على تجويد أسلوبه الكتابي وتشجيعه على النشر وعرض ما ينشره على المحك النقدي الجاد.ويبدو أن إلياس أبو شبكة الذي تعود أصوله العائلية الى أسرة قبرصية نشأت في محيط عربي خالص، واستمدت اسمها من جد كان يعمل في الصيد ويتخذ من الشبكة وسيلة للحياة قد أغرم بالصحافة وعالمها، ولم يتوان عن تقسيم وقته بينها وبين الشعر، فبالإضافة إلى انشغاله بكتابة المقالات الصحفية والروايات المتسلسلة والتعليقات السياسية والدراسات الاجتماعية وغيرها من مواد صحفية تحفل بها صحافة ذلك العصر، كان عضوًا مؤسسًا وفاعلاً في «عصبة العشرة» وهي جمعية أدبية انضوى تحت لوائها، بالإضافة إليه كل من خليل تقي الدين وتوفيق عواد وكرم ملحم كرم وميشال أبي شهلا وفؤاد حبيش وغيرهم من أشهر أدباء وصحفيي لبنان في ذلك الوقت. وقد أبلى أبو شبكة بلاء حسنا في الصحافة فكان مثالا على جرأة الصحفي الذي لا يخشى في الحق لومة لائم. أما الشعر فقد تدرج فيه منذ ديوانه الأول الذي أصدره بعنوان «القيثارة» إلى أن بلغ أوجه الإبداع في ديوان أفاعي الفردوس.. وفي تلك الأفاعي الشعرية التي كتبها الشاعر على مدى سنوات عاشها على ضفاف عشق لامرأة اسمها أولغا، لكنه أسماها غلواء ربما تعبيرا عن غوائه في عشقها وربما ليكون اسمها مناسبا لقصيدته التي كان يبحث عنها في إطار عربي خالص..

وقد برزت شعرية أبي شبكة الخاصة وأبرز سمات الرومانسية التي تميز بها في ذلك الكتاب الشعري الذي لم يخلد قصة حبه وحسب بل أيضًا شعريته الطموح والضاربة في آفاق الحرية كما صورها في قصائد الكتاب الثلاث عشرة. ففي تلك القصائد غاص الشاعر في ثنايا الجسد، على إيقاعات موسيقية وارفة الظلال على عادة رومانسيي القصيدة العربية آنذاك، وأخرج منها ما يمكن أن يكون منبعًا للشر والخير، وللقبح والجمال، كما يراها في فلسفته الخاصة وكما استمدها من قراءاته المتنوعة وخاصة لديوان بودلير «أزهار الشر.

ويكتشف الدارس لديوان «أفاعي الفردوس»، بسهولة أن الشاعر قد وضع أساسات شعرية قوية لبنيان كان يتطلع إلى اكتماله كمشروع إبداعي كبير من الواضح أن الشاعر كان دائم الاجتهاد في بلوغ غايته فيه، لكن المرض الذي غدر بجسد إلياس أبي شبكة وهو في منتصف أربعينياته تقريبًا لم يمهله، إلا لأن يترك أثره الأبرز في ذلك الكتاب المفتوح على صفحاته الأولى.. فقد رحل الشاعر في العام ١٩٤٧ تاركًا وراءه بالإضافة إلى هذا الكتاب أربعين كتابًا آخر ما بين شعر ونثر وترجمة أيضًا.

عن مجلة (العربي) الكويتية